التعريف والنقد

كلمة وزير الثقافة الدكتور محمود السيد
في الحفل التكريمي
للأستاذ الدكتور إحسان عباس(*)

أيها الحفل الكريم:

أُحييكم أطيب تحية باسمي وباسم وزارة الثقافة السورية، شاكرًا لكم جزيل الشكر وأعمقه، أيها الحضور الكريم، إقامتكم هذا الحفل التكريمي لعَلَمٍ من أعلام الثقافة العربية، ألا وهو المرحوم الأستاذ الدكتور إحسان عباس، عميد النقد العربي، والموسوعي الذي جمع في شخصه ثقافة متعددة الأطياف والأبعاد، فهو الباحث والمؤرِّخ والناقد والمحقِّق والمترجم والشاعر، حتى إن أحدنا ليقف مدهوشًا أمام ما صنعه في سيرة حياته متسائلاً: ترى هل يمكن لإنسان واحد أن ينجز هذا الإنجاز الضخم في مسيرة حياة واحدة؟

الأستاذ الدكتور إحسان عباس اسم كبير على نطاق الساحة القومية، وقامة من القامات الشامخة في ثقافتنا العربية، طالما تردَّد اسمه على ألسنة أساتذتنا في مطلع الستينيات من القرن الماضي، وكنا آنذاك على مقاعد الدراسة في مدرَّجات قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق. ولكم كان يُستشهد بأقواله وآرائه، وطالما عُدنا إلى أمهات الكتب في تراثنا الأدبي العربي التي حقَّقها، وكم له من الأيادي البيض على الأجيال التي نهلت رحيق المعرفة من هذه الكتب المتعددة والمتنوعة التي قام بتحقيقها: «نفح الطيب للمقَّري في ثمانية مجلدات، وَفَيَات الأعيان لابن خلِّكان في ثمانية مجلدات، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

(*) أُقيم الحفل التكريمي في المركز الثقافي بمخيم اليرموك في ٢٦ تموز عام ٢٠٠٥.

لابن بسام في ثمانية مجلدات، رسائل ابن حزم في أربعة مجلدات، فوات الوفيات في خمسة أجزاء»، إضافة إلى عشرين كتابًا في مجلدات، أو كتب منفردة أبصرت النور بعد تحقيقها على يديه.

ومن يُلقِ نظرة على الدواوين الشعرية التي أغنى بها المكتبة العربية يدرك أيما إدراك مدى ما كان يمتلكه المرحوم من كتابات متميِّزة في مجال الدراسة والتحقيق في ميدان الأدب، ولا يمكننا أن ننسى تحقيقه لديوان الصنوبري، وديوان الخوارج، وكثيِّر عزة، وديوان الرصافي البلنسي، وديوان ابن حمديس الصِّقلِّي، وديوان ابن ربيعة العامري... إلخ.

ولئن كان مجليًّا في ميدان التحقيق، لقد كان مجليًّا أيضًا في ميادين أُخر جال فيها، إذ إن تمكُّنه من اللغات الأجنبية جعله متميّزًا في الترجمة، حتى إنه برّ وهو المتخصِّص في النقد العربي، من يحملون شهادات التخصص في اللسانيات الإنكليزية. ومن الكتب التي ترجمها فن الشعر لأرسطو، والنقد الأدبي ومدارسه الحديثة لهايمن، وفلسفة الحضارة ودراسات في حضارة الإسلام للسير هاملتون، ويقظة العرب لجورج انطونيوس... إلخ.

كما كان مجليًّا في دراسة التراث العربي وإحيائه، إذ إنه سلَّط الأضواء على الأدب الكلاسيكي في العصر العباسي والأندلسي من أمثال أبي حيّان التوحيدي، والشريف الرضي، وأبي العلاء المعري،، وابن حمديس، وابن حزم.. إلخ.

ولم يقتصر في دراساته على التراث الأدبي القديم، وإنما تناول بالدراسة اتجاهات الشعر العربي المعاصر، كما تناول بالتحليل نفرًا من أعلام الأدب المعاصر من أمثال بدر شاكر السيّاب، وكمال ناصر، وإبراهيم طوقان..إلخ.

ولئن كان شيخ النُّقاد العرب المعاصرين قد تناول في دراساته الأدب والنقد قديمًا وحديثًا، فإن دراساته شملت أقاليم الوطن العربي في بلاد الشام والعراق ومصر وشبه الجزيرة العربية والأندلس وفي المهاجر الأمريكية.

وحظي تاريخ الأدب العربي بنصيب من بحوثه ودراساته، إذ إنه تناول بالدراسة تاريخ الأدب الأندلسي، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب، والعرب في صقلية، إضافة إلى عمله مؤرِّخًا في الوقت نفسه، حيث تناول إلى جانب تاريخ العرب في صقلية تاريخ دولة الأنباط، وتاريخ ليبيا، وتاريخ بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري...إلخ.

ولكم كان مبدعًا في فن السيرة الذاتية كما تجلَّى ذلك في «غربة الراعي»! وكان لفن السيرة موقع متميِّز في دراساته النقدية على مستوى الرؤية والممارسة، وليس من قبيل المصادفة أن يبدأ حياته بالكتابة عن أبي حيَّان التوحيدي، وأن ترافقه سيرة أبي حيَّان النقديَّة في أطوارها المتعددة، وأن يجد في الاقتراب من سيرة أبي حيَّان وابن حمديس الصقلِّي تجسيدًا لما كان يعانيه من غربة وشقاء وتهميش وحزن ومرارة إثر نكبة فلسطين وتشرد الأهل وفقد الديار، ألم يقل شاعرنا العربي:

وفي كل عين يلوح الأسى   ولكن لمن ذاق طعم الأسى

ومعذرة من الشاعر إذا استبدلنا «الأسى» بـ«الهوى» وكلاهما مزلزل للكيان النفسي لصاحبه.

لقد كان الدكتور إحسان عباس همزة الوصل بين التراث والحداثة، عالج موضوعات النقد العربي القديم: النظم والمعنى، والطبع والصنعة، والمفاضلة والموازنة، والسرقات الشعرية وعمود الشعر، وعرض لأعلام النقد العربي القديم من أمثال قدامة بن جعفر، والآمدي، وابن قتيبة، والجرجاني، وابن طباطبا، وابن خلدون...إلخ.

ولم يُعن بالنقد القديم فقط، وإنما عُني بالنقد الحديث أيضًا، إذ إنه اهتمَّ بهموم القصيدة العربية الحديثة، وقارن بينها وبين القصيدة الأوربية، فجاءت دراساته عن السيّاب والبياتي في ضوء الاتجاهات النقديَّة المعاصرة.

وفي دراسته عن مظاهر التجديد في الأدب الأندلسي يرى أنها تتمثَّل في

ابتكار الموشح، إذ إنه يرى أن الموشح لا يمثِّل عند الأندلسيين مراوحة في النغمات أو محض هرب من شكل القصيدة، إنما هو في نظره يمثِّل خصائص كثيرة في الطبيعة الأندلسية ذاتها: يمثِّل التطور الموسيقي، والروح الشعبية، والقدرة على التقفُّر.

وفي هذه الناحية الأخيرة يقول إحسان عباس «أقارنه بالأعمدة الدقيقة في قصر الحمراء التي تحمل جسدًا عمرانيًّا ضخمًا حتى ليخيل لمن يراها لأول وهلة أنها لا تلبث أن تنهار، ولهذا فإنك لو قارنت بين الموشح الأندلسي والمشرقي وجدت الثاني عملاً سطحيًّا آليًّا فاقدًا للحرارة الفنيَّة التي تجدها في الموشح الأندلسي».

ويرى أن من مظاهر التجديد أيضًا الأزجال الأندلسية، وهي تجديد محلي إقليمي، ولا يقتصر التجديد على الموشحات والأزجال، وإنما يجاوزه إلى السيرة الذاتية، فأنت لا تجد في الحب والسيرة الذاتية أدبًا يفوق «طوق الحمامة» لابن حزم، ولن تجد في علم الأديان المقارن مثل ابن حزم، ولن تجد في المؤرِّخين أناسًا كثيرين بدرجة ابن حيَّان ولسان الدين بن الخطيب.. إلخ.

لقد اتسم عميد النقد العربي الدكتور إحسان عباس بتأملاته الفلسفية العميقة في أثناء تحليله للفنون الأدبية التي تناولها وبخاصة في مجال النقد، كما تميَّز بفن السيرة الذاتية، إذ كان مبدعًا في إضافته للتراث العربي هذا الفن، إلى جانب كتاب «الأيام» لطه حسين، و«عبقريات العقاد» و«جبران» لميخائيل نعيمة، و«حياتي» لأحمد أمين..إلخ.

واتسم تحقيقه للتراث بمبدأ راسخ في نفسه وهو «المعرفة قبل الحكم» فابتعد عن التعميمات الكاسحة، وقبول الأشياء قبول مسلمات. وكان التقويم الذي اعتمده يقوم على ركيزتين أولاهما معرفة الدور الصحيح للأمة العربية في التاريخ الحضاري، وثانيتهما المواءمة لروح العصر، فلنستمع إليه يقول: «درست ما أبداه العرب في النقد الأدبي من خلال الرؤية العصرية فوجدت أنهم قاموا بدور كبير

جدًّا لا يقل عن دور أي أمة أخرى، ولولا هذه الرؤية للتراث ظل النظر إلى دورهم في الفكر النقدي إما اتهامات جائرة أو تفريطات مرتجلة. وكل دراسة في نظري لا بد أن تكون كشفًا جديدًا، ومادام كذلك فلا كشف يتحقق على أصول علمية دون إحياء التراث. أما رفض التراث انقيادًا لنزوة قلقة أو نزعة منحرفة، فإنه لا يخطر ببالي، ولا أستطيع تصوره لأنه ينمُّ عن تنكُّر للإنسان وجهوده على هذه الأرض».

ولا يمكننا أن ننسى في هذه الكلمة العجلى اهتمام أديبنا الراحل بأدب الأطفال، والذي يتأتى في نظره من إحساسه بمهمة الفن والنقد معًا، ويعدّه جزءًا مكملاً لما قام به من نشاط في ميدان النقد والدرس، منطلقه هو أن ما يقدَّم للطفل من أدب يجب أن يكون حائزًا السمات الفنية التي نتطلَّبُها في الأدب عامة، لا فرق من الناحية الفنية بين أدب الكبار وأدب الصغار، إنما الفرق في المستوى الفكري، ويقول في هذا الصدد: «أنا مع زملاء لي في دار الفتى العربي نعمل على هذا الأساس: نقوّم القصة، ونطلب إلى الكاتب أحيانًا إدخال بعض التعديلات عليها، نجري النظر فيها عدة مرات، وعندما تُدق على الآلة الكاتبة آخر مرة نعرضها على عالم نفس «سيكولوجي» متخصص في تربية الأطفال لمعرفة المستوى الذي تلائمه تلك القصة من حيث السن».

إذا كان أديبنا الراحل قد أغنى المكتبة العربية بمؤلَّفات متنوعة الأبعاد والاتجاهات بسبب ثقافته الغنية التي تأتت من إتقانه اللغة القومية، فإن إتقانه لعدد من اللغات الأجنبية ومنها الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية واللاتينية قد زاد ثقافته غنىً واتساعًا.

ولم يقتصر نشاطه على إغناء المكتبة العربية بعدد كبير من أمهات الكتب تأليفًا وترجمة وتحقيقًا، وإنما جاوز ذلك إلى رفد بعض الجامعات العربية بكوكبة من الأُطر البشرية التي تَلْمَذَتْ له في الدراسات العليا، فكان نِعمَ المشرف والموجِّه

الناصح.

وإن هذا الإنتاج الغزير من الدراسات والبحوث التي أنجزها الدكتور إحسان عباس إنما يدل دلالة كبيرة على قوة الإرادة التي كان يتحلّى بها من جهة، وعلى استثماره للوقت أحسن استثمار من جهة أخرى، وعلى تجشمه المركب الصعب من جهة ثالثة، انطلاقًا من إيمانه أن:

دروب العلا للسالكين عديدة وأقربها للغاية الموحش الوعرُ

وما كان المجد الذي بناه رحمه الله إلا نتيجة لحجم المعاناة المرة والهمة العالية ومواجهة التحديات بقوة لا تعرف الفتور وعزيمة لا تعرف الكلال، ورحم الله الشاعر بدوي الجبل إذ يقول:

يندر المجد والدروب إلى المجد صعابٌ ويكثر التزويرُ
علموا أنه عسير فهابوه ولا بدعَ فالنفيسُ عسيرُ

والواقع «النفيس عسير»، إذ إن أديبنا الكبير لم يتهيب صعود الجبال، ولم تثنه الجراح النازفة من جسم وطنه وأمته عن الدراسة والبحث والتنقيب في تراث الأمة القديم والمعاصر، فجاء نتاجه متنوعًا في أغراضه، غنيًّا في مضمونه، واسعًا في امتداداته. وأنّى لي أو لأي متحدِّث عن إحسان عباس أن يفيه حقه، أو أن يقف على قطرة من إنتاجه الفكري الواسع والغزير، والذي تجاوز التسعين كتابًا؟

فمعذرة أيها العميد الراحل، أيها العالم الجليل بكل ما تحمل كلمة عالم من معنى، علمًا وخلقًا ومعرفة وقيمًا، أيها الموسوعي المتواضع في شموخه، والشامخ في تواضعه، والقمة الشاهقة في أدبنا، إذا كنا لم نتمكّن من إيفائك حقك:

واعذرْ إذا لم أوفِ فكرك حقّه لجج الخضمّ طغت على السبّاح

أكرر الشكر الجزيل لكم أيها الحاضرون لالتفاتة الوفاء للأديب الراحل الأستاذ إحسان عباس.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.